

## محمد الصغير في الدائرة

ذات فجأة ، رفع محمد الصغير رأسه عن كتاب الأبجدية ، وفتح الى وجه ابيه الذي كان ينحني على طعام الغداء ، ولما لم يبادل له الاب النظرات ، انكفا الابن من جديد على حروف الابجدية وعلى الصور التي لا تشبه الحروف ، وحيدا في زاويته ، بانتظار فرصة مواتية له شجاعة سانحة ، تجمله يقترب من الاب الكبير ، ويبوح .

وعندما رفع الاب جذمه وبدا على وشك الانتهاء من طعامه دون ان يبدو عليه الاكتفاء او بقاء الرغبة .. حانت من محمد الصغير التفاتة خاطفة الى ابيه ، وتبسم ابتسامة بشر وامل ، فبادلوه ابوه بابتسامة سماح ورغما .. عند ذلك تشجع محمد ، وقال بتلك اللهجة الرشيقية ، لهجة من يستأنف حديثا شائقا ، كان قد انقطع سابقا :

- ابي ، اريد ان اسالك سؤالا .  
فقال الاب على الفور :

- طيبا ، انك لا تعرف ابدا ان تقرا لوحده . لماذا انت هكذا ؟  
فتبسم محمد بخبثه الصغير ، وقد واثته الشجاعة الان .  
- بل اعرف ، لكنني اريد ان اسالك سؤالا .

- اسأل .

- ابي ، هل انجبت انت ؟  
- انا ؟

- نعم انت .

كانت الام قادمة من المطبخ . ربما سكت صوت وابور الكاز ونهاى اليها السؤال ، فاسرعت بالمجيء وهي تنهد ، قسائلة بلهجة التمسيد :

- قال الله ولا فذلك . ما اكثر كلامك !

فاحنى محمد رأسه امام عاصفة يعهدا في امه ، وغمغم بكلمات طاقنة متشيرة ، كأنما قالها لنفسه فقط .

اما الاب ، فكان ينظر الى ابنه بدهش وتامل ، وقد استغرقته الخواطر ، وخرج صوته منزلقا :

- لماذا تسأل ؟

فبدا محمد الصغير ، وقد فقد شجاعته السابقة ، وان احتفظ بقصوله القاهر . رفع رأسه وحقق في وجه ابيه :

- ولا لشيء يا ابي . اريد ان اعرف فقط .

كان الاب يتوقع من ابنه اجابة مباشرة و « صادقة » . ولما لم يحدث ذلك فقد استيقظ انتباهه مشوبا بحذر طفيف ، وشمر ان

ابنه هذا قد كبر من الامس الى اليوم ، على نحو مفاجيء ، فبدأ يخاف عليه ويعتز به .

- ولماذا تريد ان تعرف ، لم تسألني من قبل هذه الاسئلة ؟

- لان صاحبي في المدرسة ، ابوه محبوس ، يا ابي .

- ما اسم ابيه ؟

- اسم صاحبي خالد ابو العينين .. خالد احمد ابو العينين .

- ابوه يعني احمد ابو العينين .. هذا الرجل لا اعرفه .

يا ابني ، لا اعرفه .

فسكت محمد سكوت الخيبة . انه لم يعرف شيئا ، وكان قد دخل مع ابيه في دائرة الاسئلة والاجوبة ، وهو يريد لهذه الدائرة ان تتسع ، وتلي كل خواطره الطفلية وان تهديء من ضميره الصغير . انه يسكن في بلدنا يا ابي .

- اهل بلدنا كثيرون يا ابني ، وانا لا اعرفهم جميعهم . هل تعرف انت كل طلاب مدرستك ؟

- لا ، لا اعرفهم كلهم . اعرف طلاب صفي فقط . لكن انتم الرجال تعرفون بعضكم يا ابي .

- هل قال لك صاحبك شيئا ؟ قل لي ولا تهتم .

- لم يقل لي شيئا . قال ان اليهود جاؤوا الى بيتهم فسي نصف الليل ، واخذوا اباهم معهم وهناك حبسوه .

- اين بيتهم ؟

- لم اذهب مع صاحبي الى بيتهم . انه من طريق نانيسة يا ابي .

- متى حدث هذا ؟

- اول امس . قال انهم فتشوا البيت واخذوا صندوقا كان عندهم . امس غاب صاحبي عن المدرسة ، واليوم جاء وقال لي . انه يا ابي احسن طالب في الصف .

- قلت انهم اخذوا صندوقا من عندهم ؟

- نعم صندوق . ولا يعرف صاحبي ماذا في الصندوق .

- طيب اقرأ في كتابك الآن ، ولا تفكر بهذه الاشياء .

- انا قرأت الدرس مرتين يا ابي ، واريد ان اسالك لماذا

حبسوه ؟

- قلت لك يا محمد انا لا اعرف هذا الانسان ، فكيف ساعرف

لماذا حبسوه ؟

- هل نام محمد ؟  
فقالته وهي تنهض من نومها :  
- نام من زمان ..  
فجاء صوت محمد من تحت الظاء :  
- مساء الخير . أنا لم انم يا ابي .

- يعني حبسوه بدون سبب ؟  
- لا ادري ، بسبب او بدون سبب . ولا اريدك ان تكسّر  
كلاك في المدرسة او في الحارة .

لقد تعاطف شعور الاب ان ابنه الصغير قد بدأ يكبر ، على  
صورة تدعو للخشية عليه والاعتزاز به . وقد آثر ان يقصي السؤال  
عنه ، لاسباب تخصه ، وربما لأول مرة ينهره عن ثقة ورضا ، لا عن  
غضب وقنايب .

ورفع عنه الظاء . مسح الاب على رأس ابنه فنهض محمد  
والتصق بصدر ابيه ، ورفع الاب ذقن صغيره بتؤدة ولطف وهو يحتق  
فيه ، وقبله . كانت قبلة كافية ، لان يتحرر الابن من عواطف ابيه  
المانعة ، ويستيقظ ، ومعه فضول النهار الباقي والطافي :

اما الام فانها في الزاوية الاخرى ترتق الثياب بداب متواصل ،  
وقد راق لها ان تصور الامر ، على انه مجرد تعقيب على حكاية رواها  
الاب لمحمد ، بينما محمد يحاول الان كعادته ولانه صغير ، ان يفهم  
وبالحاح امورا هي غير موجودة او حقيقية . هكذا بدت في لاسالانها ،  
وهي محنية الرأس على الثوب ، تتمتم لنفسها بكلام نسائي او كلام  
منزلي ، او تترجم على أحد موتاها ، او تلجج بتلك الادعية الخافتة  
الرتيبة لله جل جلاله .

- هل تريد ان تنام يا ابي ؟  
- الواحد يجب ان ينام الان يا حبيبي ، الدنيا نصف الليل الان ،  
- لست نسانا .  
- طيب ماذا تريد ان تفعل .. هل تريد ان تسال الان ؟  
- نعم يا ابي ، لانك لم تجاوبني ، لماذا حبسوا ابو العنين ؟

بينما الابن قد انحسر فضوله وانطوى على نفسه ، مثل قف  
اتيس ماكر لم يحفظ بكوب حليبه .  
ربما لا يليق هذا الوصف به ، فانتصار العقل البسادي في  
عينيه ، لا يقل عن انتصار البراءة في حناياه . هذا ما كان يضي عليه  
رجولة مبكرة ، مقبوضة ومحتقنة .

- انت صاير ولد صعب . تفيرت . طيب خلي صوتك واطي،  
الناس نايمة . حبسوا الرجل لانهم اعداء يا ابي . الاعضاء يفلتون  
هكذا دائما .  
- ولماذا يفلتون هكذا ؟  
- لانهم اعداء ، الا تفهم ؟

كان الاب قد خرج في تلك الاثناء ، ولم يهتم محمد بعد ان تاكد  
من ابتعاد ابيه ، ان اندفع الى الحارة ، رغم تمنع الام وتحذيراتها .  
لكن محمد بعد ان مشى قرب بعض جدران البيوت القريبة ، ما لبث  
ان رجع بهيئة من اضاع شيئا او بحث عن شيء ولم يجده ، وكانت  
عليه سيماء الصجر والاسي .

وهز محمد رأسه اشارة على الفهم والايضاح ، ونهيا للاب  
ان محمد سوف ينسى وينام . غير ان محمد لم ينس ذلك السؤال  
الذي كان يهتف في رأسه وضميره ، دون ان يتمكن من قبل ،  
ان يقوله .  
- انا اقصد يا ابي ، اقصد لماذا حبسوه هو ولم يحبسوا  
غيره ؟  
عندها وجد الاب نفسه يسقط ويدخل في الدائرة من جديد .

اطبقت الشمس على الفروب ، فلدعت له الام بيضة مقلية  
ليتمشى بها ، فاكلها على مهل . واثقت له بفراشه الصغير ، فسي  
الزاوية التي كان يقضي فيها ، لكي يذهب الى نومه ولا يتأخر .  
وقبل ذلك كان ذهب الى المرحاض حتى لا يتشاجر مع امه وتصربه ،  
ثم تمدد على الفراش .. ولكن لا لينام .  
بل ليانتظر الاب .

وقبل ان يعثر على جواب كاف لمحمد الصغير ، كان باب البيت  
قد قرع بصنف ، فانفلت الاب الى الغرفة الثانية ، ودوى اهتزاز  
الباب وسقوطه بصوت انفجاري حاد ، وتدق جنود احاطوا بالرجل  
( محمد اطلق صرخة واحدة وسكت ) وآخرون اتجهوا الى المطبخ ،  
وخرجوا من امام محمد ، يحملون صندوقا ثقيل ( فتح محمد عينيه عليه  
ورأى جانبا من قطعة سلاح طويلة على واجهة الصندوق المخلوع ،  
وكانت اول مرة يرى قطعة سلاح بدون شخص يحملها ) ثم رأى المجموعة  
الاولى من الجنود وهي تنزع الاب من الام وتحيط به وتقوده وهي  
توجه فوهات اسلحتها الى ظهره .

وقد تأخر الاب في تلك الليلة ، كانما ليظل محمد محروما من  
الاجوبة على أسئلته ، فانتابه الخوف . لم تكن تلك هي المرة الاولى  
التي يتأخر فيها عن الرجوع الى البيت ، لكنها كانت المرة الاولى التي  
يخاف فيها محمد لهذا السبب . وهو في خوفه ، لم يكن يسمع امه  
التي تراقبه بين وقت وآخر لتحثه على النوم ، حتى يذهب في الصباح  
نشيطا الى مدرسته ، ولا يتأخر عندما تناديه للاستيقاظ . ولكنه  
كان يرى ذلك الرجل ابو العينين طويلا ثابتا مثل ابيه . قويا ممتلئا ،  
بشارب كثيف ، ويرتدي جاكيت اخضر مثل ابيه . رأى ابو العينين  
ورأى بيته . رآه يكمن قريبا من باب البيت لانه يعرف ان الجنود  
اليهود قادمون الى بيته ، وحين يقتربون يفاجئهم بالرصاصة السريع ،  
ثم يدخل البيت من الباب الخلفي ، وينام . ثم رآه ، رأى عيسونه  
واسمة مفتوحة تتقد بالغضب مثل عيون الاسد ، وقال انه لذلك اسمه  
ابو العيشين ، رآه وقد غافل حارسه في السجن وقتله بصمت ، وخرج  
راكضا دون ان يلحظه احد ، غير انه لم يرجع الى بيته هذه المرة .

وان هي غير لحظات ، حتى فرغ البيت من الاب والاجوسنة  
المرتجاة . سوى جواب واحد كان يخفق في صدر محمد الصغير ،  
جواب فامض قوي ينتشر في البيت مثل طيف رجل مسلح مجهول ،  
ومحمد لا يعرف كيف يلتقطه .

والتصقت الام بابنها دون ان ينقطع نشيجها ودعائها البكائي ،  
اما محمد فلم يلبث ان كف عن البكاء ، عندما اخلت نبت في رأسه  
واعصابه الحزينة ، أسئلة صغيرة تصدت وتكاثرت حتى اصبحت دائرة  
تحيط به وتطبق عليه ، فجعل يترقب بصبر وحنق طوع النهار ،  
ليسرع الى صاحبه خالد ، ويكونا معا .

فتح الاب باب البيت ودخل ، وسأل امرانه بعد ان القى نظرة  
الى الابن :